ركن المعتزلة :

قدرة الله في مذهب المعتزلة

الدكتور ألبير نصري نادر

— ٢ —

تقول المعتزلة إن الله لا يفعل إلا الأصلح وأن قدرته لا تأتي إلا بما هو كمال ؛ فقط هناك نقطتان ذواتا أهمية كبرى وهما التوفيق بين قدرة الله تعالى وحرية الاختيار عند الانسان من جهة ومن جهة أخرى مسألة الظلم : هل يمكن أن يفعله أم لا يمكن.

قدرة الله وقدرة الانسان على أعماله :

لما كان الله قادراً على كل شيء ، ولما كانت قدرته لا متناهية كذاته ومتجهة دائماً نحو الكمال ، فمن أين إذن الشر والمعصية

السلف قبضوا على رجل ونودي عليه هذا جزاء من سب عائشة وزوجها (ض) وقدم الرجل بعد النداء وضرب عنقه .

وقال ابن المأمون وفي يوم عاشوراء يعني سنة ٥١٥ هـ (وذلك في عهد الآمر بأحكام الله سنة ١١٢١ م) جيء البساط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر التي كان يسكنها الأفضل ابن أمير الجيوش وهو البساط المخصص بعاشوراء وكان يبسط في غير المكان الجاري به العادة في الأعياد ولا يبسط مدورة خشب بل سفرة كبيرة من أدم والبساط يطوها من غير مراعاة نحاس وجميع الزيادي أجبان وسلائط ومخللات ، وجميع الخبز من شعير وخرج الأفضل من باب (قرد الكم) وجلس على بساط صوف من غير مشورة واستفتح المقرئون واستدعى الأشراف على طبقاتهم وحمل البساط لهم وقد عمل في الصحن الأول الذي بين يدي الأفضل إلى آخر البساط عدس أسود ثم بعده عدس مصفى إلى البساط ثم رفع وقربت صحون جميعها عسل نحل .

ضياء الرفيلي

وما يترتب عليهما من عقاب وألم ؟ إنهما لا يقعان إلا عن كائن حر الاختيار في نيابه وأعماله ، يتردد ثم يختار ويعزم . وفي تردده هذا دليل على عجزه وعدم كماله . ويترتب على اختياره نتائج ملائمة لما اختاره من عمل حسن أو سيء . فأين قدرة الله من عمل الانسان هذا ؟ إن قدرته تعالى تحدها حرية الانسان . والمعتزلة يتمسكون بشدة بهذا المبدأ ويبنون عليه المسألة الأخلاقية بكاملها .

وبما أن الثواب أو العقاب هو نتيجة لما اختاره الانسان بمجرد حريته فلا يمكن الله أن يغير أو يبدل في هذا الثواب أو العقاب . ويقول النظام بهذا الصدد : إن الله لا يقدر على أن يخرج أحداً من أهل الجنة منها ولا يقدر على أن يلقي في النار من ليس من أهل النار . ويقول أيضاً : لو وقف ملك على شفير جهنم لم يكن الله قادراً على القائه فيها وقدر الطفل على إلقاء نفسه فيها[1] . إننا لا نعجب من قول المعتزلة هذا لأنهم أثبتوا من جهة قدرة الله لامتناهية ؛ وهي في مذهبهم ليست سوى الذات ؛ وأثبتوا من جهة أخرى قدرة الإنسان على أنه حر في اختيارها . وبعد ذلك وجدوا أنفسهم أمام مشكلة عويصة وهي هل الله قادر على كل شيء : على الظلم والجور كما هو قادر على العدل ؟ وبمعنى أوضح هل يقدر الله تعالى أن يثيب من استحق العقاب وأن يعاقب من استحق الثواب ؟ بحثت للمعتزلة هذه المسألة على ضوء العدل وسنبين فيما بعد الحل الذي أتوا به . وقبل أن نتعرض لهذا الحل نذكر هنا عقيدة راسخة عند المعتزلة استنتجوها من قولهم بعدل الله وقدرة الإنسان على أعماله ، وهي أن الله تعالى يعدل لما فيه صالح الخلق ولكنه يترك الإنسان حراً في اختياره . ولما كان الله تعالى لم يزل يعلم ما يختاره الإنسان من أعمال فإنه يأتي أحياناً بلطف من عنده لمساعدة ذوي الإرادة الحسنة . لذلك يقول بشر ابن المعتمر[2] إن الله لو علم من عبد أنه لو أبقاه لآمن كان إبقاؤه إياه أصلح له من أن يميته كافراً[3] فلنلمس هنا مسألة اللطف الذي

---

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١١٥ — الشهرستاني : الملل والنحل (على هامش ابن حزم ط ص ٦١) .

(٢) هو أبو سهل الهلال بشر بن المعتمر المتوفى حوالي ٢١٠ هـ أو ٢١٦ هـ وهو مؤسس فرع بغداد . تتلمذ لأبي عثمان الزعفراني ولبشر بن عبد صاحبي واصل بن عطاء رأس المعتزلة .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤١ .

يتدارك به الله الناسي . ولكن المعتزلة تقول إن هذا اللطف لا يمنع إلا في حالات شاذة نادرة . وخلاص نفوسنا أو هلاكها عائد إلينا ، وذلك بفضل حرية اختيارنا لذلك يقول بشر بن المعتمر وعمه جميع المعتزلة إن الله لا يكون موالياً للمطيع في حال وجود طاعته ، ولا معادياً للكافر في حال وجود كفره ؛ وإنما يوالي المطيع في الحالة الثانية من وجود طاعته ، ويعادي الكافر في الحالة الثانية من وجود كفره[1] .

هذا قول واضح بأن الإنسان بمحض إرادته يصبح مطيعاً أو كافراً ولا قدرة لله في ذلك . وبعدما يصبح الإنسان مطيعاً (وهي الحالة الثانية التي يتحدث عنها المعتزلة) حينئذ يكون الله موالياً له ؛ وبعدما يصبح كافراً (وهي الحالة الثانية في الكفر) حينئذ يكون الله معادياً له . ويستدل المعتزلة على ذلك بقولهم إنه لو جاز أن يساعد الله الإنسان في حال وجود الطاعة فيه لجاز أن يساعده في حال وجود الكفر فيه . وهذا محال في مذهبهم لأن الله لا يفعل الشر ؛ والشر في الحقيقة هو الماضي الموصلة إلى عذاب الله ، على حسب قول قاسم الدمشقي[2] .

الحكمة في أعمال الله :

تقول المعتزلة إن الله غاية في الحكمة ولا يفعل إلا الأصلح فهو تعالى لا يعمل شيئاً اتفاقاً أو جزافاً . فعليه توجد قوانين ثابتة ومحددة من لدن حكمته تعالى تسوس جميع الأمور في هذا العالم ؛ وهذه القوانين خاضعة لحكمة الله الكاملة . فيجب أن ننظر إلى كل ما يحدث في الدنيا كأنه تعبير لهذه الحكمة . وعقل الإنسان ، في رأيهم ، يمكنه أن يدرك هذا النظام الكامل في العالم والذي يدل على وجود خالق أزلي حكيم كامل عادل .

هل يقدر الله على أن يظلم ؟

يبدو هذا السؤال غريباً في مذهب المعتزلة القائلين بأن الله كلي الكمال ؛ ولكنهم بالرغم من ذلك خصوا هذا السؤال حتى يوضحوا فكرتهم عن الله ويجلوها .

من الجلي أنهم جميعاً ودون أي فكرة تؤدي إلى الإعتقاد بأن هناك ظلماً في عمله تعالى وهم يرددون دائماً بأن الله يفعل ما فيه صالح الخلق . فإذا بحثت المعتزلة هذا الموضوع فيكون ذلك من جهة القدرة فقط ، وليس من جهة عمل الظلم فعلاً من لدنه تعالى . فيكون الموضوع مجرد بحث نظري . وعلى هذا الشكل نجد طرفين مختلفين لهذا السؤال عند المعتزلة .

الحل الأول : القول بالقدرة :

القائلون بها من المعتزلة هم أبو الهذيل العلاف وأبو موسى المردار وجعفر بن حرب وبشر بن المعتمر . وقولهم مقتضى أن الله يمكنه أن يفعل الظلم ولكنه لا يفعله أبداً . وأوضح المردار حجتهم في ذلك بقوله : إن الله يوصف بالقدرة على العدل وعلى خلافه وعلى الصدق وعلى خلافه ، لأن هذه هي حقيقة الفاعل المختار أن يكون إذا قدر على فعل شيء قدر على ضده وتركه[1] ولكن يضيف المردار إلى هذا قوله : ولو فعل تعالى مقدوره من الظلم والكذب لكان إلهاً ظالماً كاذباً[2] وهذا ما يناقض فكرة الله عند المعتزلة وتعريفهم له تعالى إذ يقولون إن ذات الله هي الكمال والظلم لا يقع إلا من كائن غير كامل . فإذن يستند أصحاب هذا الرأي على فكرة الاختيار عند الله ليقرروا أنه تعالى قادر على الظلم ؛ ولكنهم يعودون ويقولون أن الله لا يفعله . ويقول أبو الهذيل في هذا الصدد : إن الله يقدر على الظلم والكذب ولكنه لا يفعلهما لقبحهما وهو تعالى كامل لا يفعل القبيح[3] . ويضيف جعفر بن حرب قوله : لن يسأل هؤلاء المعتزلة : أفعلكم أمان من أن الله لا يفعل الظلم وهو قادر عليه ؟

(أ) قلنا : نعم هو ما أظهر من حكمته وأدلته على نفي الظلم والجور والكذب .

(ب) فيستنتج من ذلك أن المعتزلة القائلين بقدرة الله على الظلم لأنه مختار لأفعاله يذهبون في آخر الأمر إلى القول بأنه لا يفعل الظلم لأنه تعالى كامل ولأن الظلم قبيح في ذاته . ولهذين السببين يقولون إن الله مع قدرته على الظلم لا يفعله .

(١) نفس المصدر .
(٢) المانط : كتاب الانتصار ص ٨٥ .

(١) المانط : الانتصار ص ٦٦ .
(٢) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٥٩ .
(٣) العبد سنان : المسل على حاشية ابن حزم حـ ١ ص ٦١ . الأشعري : مقالات الاسلاميين ص ٢٠٠ و ٥٥٥ ابن حزم : الفصل حـ ٤ ص ١٤٧ .

الحل الثاني : القول بعصمة الذرية :

يقول النظام وعلى الأسوارى والجاحظ والإسكافى إن الله لا يوصف بالقدرة على الظلم والكذب وعلى ترك الأصلح من الأفعال إلى ما ليس بأصلح وأحالوا أن يوصف الله بالقدرة على عذاب المؤمنين والأطفال وإلقائهم فى جهنم[1] لأن الخلوق العاقل فى رأيهم يقدر أن يفعل الشر كما يقدر أن يفعل الخير لأن إرادة الإنسان الحرة يمكنها أن تختار بين الخير والشر وهى تثاب أو تعاقب حسب ما اختارته من أعمال . ولكن لا يوجد هذا الاختيار فى قدرة الله ، لأن قدرته تعالى على قول هؤلاء المعتزلة لم تزل متجهة فقط نحو الخير المطلق . وللنظام حجته فى ذلك . فهو يقول : إن القبح إذا كان صفة ذاتية للقبيح وهو المانع من الاضافة إليه فعلا ففى تجويز وقوع القبيح من الله تعالى قبح أيضاً ؛ فيجب أن يكون مانعاً . ففاعل العدل لا يوصف بالقدرة على الظلم ، لأنه لو وصف بالقدرة عليه لكان عنده ميل إلى الظلم . وهذا الميل نقص وضعف مما يناقض ماهيته تعالى الكاملة . وخلافا لمن زعم من المعتزلة أن الله يقدر على أن يظلم ، يقول النظام إننا لا يمكننا أن نصف الله بهذه القدرة لأن ذاته تعالى لم تزل ثابتة وليس فيها أى ضعف أو عجز . فلذلك يقول النظام إن الله لا يقدر على أن يفعل لعباده فى الدنيا ما ليس فيه صلاحهم ، كما أنه لا يوصف بالقدرة على أن يزيد فى عذاب أهل النار شيئاً ، ولا على أن ينقص من نعيم أهل الجنة ، ولا أن يخرج أحداً من أهل الجنة . وليس ذلك مقدوراً له[2] لأن الظلم والكذب لا يتمان إلا من جسم ذى آفة . فالواصف لله بالقدرة عليهما قد وصفه بأنه جسم ذو آفة[3] . ثم هناك قول آخر شديد لأبى جعفر الإسكافى فى هذا الصدد إذ يقول أن الأجسام تدل بما فيها من العقول والنعم التى أنعم الله بها عليها على أن الله ليس بظالم لها . والعقول تدل بأنفسها على أن الله ليس بظالم . فليس يجوز أن يجامع دفوع الظلم عنه عادل لنفسه على أن الظلم ليس يقع منه[4] .

* * *

(١) الأشعرى : مقالات الاسلاميين ص ٥٥٤ .
(٢) الصهر ستانى الملل على هامش ابن حزم جـ ١ ص ٦١
(٣) الخياط : الانتصار ص ٢٧ .
(٤) نص للصدر ص ٩٠ .

هذان القولان : القول بقدرة الله على الظلم والقول بعدم قدرته تعالى عليه ، ولو أنهما يختلفان إلا أن النتيجة التى يصلان إليها واحدة وهى أن الله لا يظلم أبداً حتى ولو قدر على الظلم . إلا أن أصحاب القول الأول بنوا رأيهم على فكرة وجود الاختيار عند الله فى حين أن أصحاب القول الثانى لا يقولون بهذا الاختيار لأن الله فى زعمهم غير مختار وهو الكمال المطلق ، والاختيار تفضيل أمر على أمر وهذا ليس من خصائص الله تعالى . والذى جعل أصحاب القول الأول يتراجعون ويقولون إنه تعالى لا يأتى الظلم هو أن الظلم قبيح فى ذاته وأن الله كمال مطلق . فالفارق بين هؤلاء وهؤلاء فارق نظرى بحت .

أنيس نصرى نادر
دكتور فى الآداب والفلسفة

إعلان

تعلن إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة أنه قد تجمع لديها عدد من عدادات كهرباء مملوكة للمشتركين وخزنت بالمخازن بعد فصلها من أماكنها ولم تستطع الادارة الاستدلال على العناوين الحالية لأصحابها .

وترجو الادارة كل من له عداد خاص بأحد فروعها وفصل من مكانه أن يسارع بتقديم المستندات الثبتة لملكيته لاستلام العداد فى موعد نهايته أول ديسمبر سنة ١٩٤٩ .

ولن تلتفت الادارة إلى أى طلب يقدم إليها فى هذا الشأن بعد التاريخ المذكور . ٣٣٢٤